ان الحياة الادبية في البلاد العربية ومنها سوريا لم تكن احسن حالا مما كانت عليه في مصر ولاسيما في القرن التاسع عشر , فقد كانت موضوعات الشعر لا تتسع لاكثر من المدائح والمراثي وشعر المناسبات المشحونة بالتملق والرياء بعيدة عن الصدق ؛لذلك نجد الشعر ينحصر في نطاق ضيق , سواء في موضوعاته او اساليبه او افكاره. ولعل ضعف الثقافة وجهل الولاة وانشغال الناس بامورهم الخاصة, ومشاكلهم الكثيرة, كان كفيلا بان يجعل من الشعر والادب بضاعة رخيصة, وتكاد اليقظة الادبية والفكرية التي تحققت في مصر تتكرر في صورة مماثلة في سوريا والعراق وغيرها من الدول العربية, فاذا كان قد قيض لمصر العديد من العوامل التي اثرت في يقظتها وتقدمت بها على نحو افضل واعظم من قبل ,فقد تهيأ لسوريا من العوامل مثلما توافر لمصر, واذا كان الخديوي اسماعيل قد اسهم اسهاما فاعلا في تقدم الحركة الادبية والفكرية والعلمية في مصر , فقد كان مدحت باشا في سوريا يسهم الاسهام نفسه في هذه الحركة ,واذا كان تطور الحركة الادبية في مصر قد اقترن بتطور الفكر الديني والتحرر السياسي وتهيأ له امثال الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني ورفاعة الطهطاوي وغيرهم؛ لذلك اقترن تطور الحركة الفكرية والادبية في سوريا بالنهوض الديني والتحرر السياسي ايضا, فضلا عن ذلك تهيأ له رجال من امثال عبدالرحمن الكواكبي واحمد فارس الشدياق واليازجي وجمال الدين الافغاني, وقد واكبت ذلك حركة تحرر دينية ترجع الى اصول السلف الصالح. وهكذا تم لمصر ان تنمو فيها حركة الادب والثقافة والعلم والفكر بوساطة البعثات .

لقد كانت سوريا سباقة في مجال الطباعة , وكان السوريون اسبق المشارقة الى الطبع بالعربية واسبق المدن الى ذلك حلب وقد توالى في سوريا حركة الطباعة, فكانت المطبعة الثانية في الشام سنة 1855م , وتلتها المطبعة المارونية في حلب سنة 1857م, واخرى في دمشق 1864م.وتلى ذلك عدة مطابع في دمشق وحلب وغيرها من المدن السورية اما في لبنان والقدس ,فقد فاق عدد المطابع ما كان موجودا في سوريا ومصر , اذ بلغ عددها في القدس (22مطبعة) وفي بيروت (17 مطبعة).

اما رائد الصحافة العربية الاول (اديب اسحاق) فقد انطلق الى خارج سوريا ليكون احد رواد الصحافة الحرة. ان رحيل عدد كبير من رواد الصحافة السورية الى مصر بسبب ضيق الحرية في بلدهم كان واحدا من الاسباب التي غذت الصحافة المصرية.

لقد كان عامل الطباعة والصحافة قد ادى دورا فاعلا في حركة النهضة الادبية في كل من مصر وسوريا, فانه لم يفعل الفعل نفسه في العراق, على الرغم من ان

الصحافة العربية في العراق قد وجدت في وقت مبكر , اذ ان اول جريدة عراقية بالعربية هي جريدة الزوراء صدرت سنة 1869م, في زمن مدحت باشا.الا ان صحيفة واحده لا يمكن ان تؤدي وظيفتها في حركة النهضة الادبية والفكرية , فقد كان الشعب في العراق غير مهيأ لاستقبال الصحافة, بسبب كثرة مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية , ولاطباق الجهل على الاغلبية من السكان . وان اول مطبعة تأسست في العراق هي مطبعة الزوراء التي نقلها الوالي مدحت باشا من فرنسا في السنة التي اسس فيها الزوراء. ثم اصدر العثمانيون بعد ذلك جريدة الموصل 1885م واحتجبت سنة 1914م بسبب ان العثمانين لم يرق لهم صدور الصحف بسبب الدور التحرري يمكن ان يؤدي لشعوب الامم التي كانت تقع تحت سيطرتها.

ان تتابع صدور الصحف العربية في العراق, قد استمر بعد اعلان الدستور سنة 1908م فقد اصدرت جريدة بغداد سنة 1909م , وترأس تحرير القسم العربي فيها الشاعر معروف الرصافي , كما صدر مجموعة من الصحف في السنة نفسها في بغداد , وهي الرقيب وبين النهرين والارشاد والانقلاب والتعاون والروضة والحقيقة وصدى بابل والزهور والعراق وغيرها . ان تأثير الصحافة صار مجديا منذ فترة الحكم الشعبي, لان الصحف في هذه الفترة تميزت بنشر الوعي الوطني والقومي والفكري ومن الذين اسهموا في الكتابة وهم ابراهيم صالح شكر وابراهيم حلمي والكرملي ومعروف الرصافي وباقر الشبيبي و روفائيل بطي وعدد كبير من ادباء وكتاب البلاد العربية. لقد كان شعراء وادباء من البلاد العربية المختلفة يبعثون بنتاجهم الادبي الى الصحف المصرية ومنهم محمد سعيد الحبوبي والرصافي والزهاوي وعبد المحسن الكاظمي.

ان العوامل التي كانت لها تأثيرا مباشرا في نهضة الحياة الادبية منذ بداية القرن التاسع عشر, ومنها اليقظة السياسية والوثبة الدينية فقد تأثر مجموعة من شباب الوطن العربي بالثورات السياسية التي تفجرت في اوربا, وسلكت في دعوتها منهجا قوميا يقوم على الاعتداد بالمواطنة الصحيحة , وقد كان معظم القائمين على الدعوى القومية العربية شباب عنوا بالادب واتصلوا بالمبادئ الحرة, والافكار الجديدة.وفي دعواتهم نادوا بحرية الفكر وطالبوا بوحدة الامة, وبشروا بسمو المبادئ , وقد غرسوا في دعوتهم مبادئ الحرية ودعواتها الانسانية. وكانوا يعلنون عن ذلك كله في ما يصدرونه من نشرات او كراريس صغيرة , وقد حاولوا في جمعياتهم السرية ان يدعو الى تحرير الامة العربية وحريتها ووحدتها.

ومن تلك الجمعيات الجمعية القحطانية وجمعية العهد وجمعية المنتدى الادبي وغيرها.

اما العامل الثاني فكان يتمثل باليقظة الدينية التي تولى مبدئها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده. اذ يقوم تاثير هذا العمل على الدعوة الى حرية الانسان وتحرير عقله من القيود التي وقفت بين وبين انطلاقة الحرية في التفكير والعمل, كما يقوم على تخليص الدين الاسلامي وتعاليمه مما علق بها من شوائب.

ان اليقظة الدينية كانت تحاول الربط بين تحرير الافكار وتحرير الادب والشعر ايضا . ولهذه النشاطات الفكرية من صلة بتحرير العقل الذي يتوقف عليه تحرير النشاط الانساني ودليل ذلك هو ان ما تحرر من النصف الثاني من قرن التاسع عشر وما بعده, قد شمل الحياة العربية كلها سواء منها النشاط الفكري والادبي او النشاط الديني , كون هذه النشاطات كانت ترتبط بخيط دقيق واحد وهو خيط الحياة الانسانية العربية .

ان هذه اليقظة قد اتفقت عناصرها بفعل الرياح الجديدة , القادمة من العالم الاوربي المتغير. فكانت محاولة الشاعر محمود سامي البارودي في مجال الشعر تمثل خلاصة ما انتهت اليه محاولات مجموعة من الشعراء في العراق وسوريا ومصر ,اذ لم تستطع ان تنتشل الشعر من واقعه الفاسد ولكن البارودي يعد رائدا حقا للشعر الحديث, كونه استطاع بفنه وقدراته الابداعية ان ينتشل الشعر من واقع الى واقع فكري متجدد

قال البارودي:

تغير الناس عما كنت أعهده فاليوم لا أدب يغني ولا فطن

ولا صديق يراعي عيب صاحبه ولا رفيق على الاسرار يؤتمن